تفسير ابن كثير

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر ا عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : { نحن أبناء ا وأحباؤه } فأكذبهم ا تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ورد عليهم تعالى في ذلك وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال : { تلك أمانيهم } وقال أبو العالية : أماني تمنوها على ا بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى { قل } أي يا محمد { هاتوا برهانكم } قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس : حجتكم وقال قتادة بينتكم على ذلك : { إن كنتم صادقين } أي فيما تدعونه ثم قال تعالى : { بلى من أسلم وجهه وهو محسن } أي من أخلص العمل وحده لا شريك له كما قال تعالى : { فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي ومن اتبعن } الاية وقال أبو العالية والربيع { بلى من أسلم وجهه } يقول : من أخلص وقال سعيد بن جبير : { بلى من أسلم } أخلص { وجهه } قال دينه { وهو محسن } أي اتبع فيه الرسول صلى ا عليه وسلّم فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون صوابا خالصا وحده والاخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد] رواه مسلم من حديث عائشة عنه E فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول صلى ا عليه وسلّم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال ا تعالى : { وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا } وقال تعالى : { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا } وقال تعالى : { وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية * تسقى من عين آنية } وروي عن أمير المؤمنين عمر Bه أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى : { إن المنافقين يخادعون ا وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون ا إلا قليلا } وقال تعالى : { فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون * ويمنعون الماعون } ولهذا قال تعالى : { فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا } وقال في هذه الاية الكريمة : { بلى من أسلم وجهه وهو محسن } وقوله : {

فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون } ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور { فلا خوف عليهم } فيما يستقبلونه { ولا هم يحزنون } على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير { فلا خوف عليهم } يعني في الاخرة { ولا هم يحزنون } يعني لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى : { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب } بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم كما قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول ا صلى ا عليه وسلّم أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل ا في ذلك من قولهما : { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب } قال : إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ ا عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند ا وكل يكفر بما في يد صاحبه وقال مجاهد في تفسير هذه الاية : قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا { وقالت النصارى ليست اليهود على شيء } قال : بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية والربيع بن أنس في تفسير هذه الاية : { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء } هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول ا صلى ا عليه وسلّم وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ولكن ظاهر سياق الاية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى : { وهم يتلون الكتاب } أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفاسد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها وا أعلم وقوله : { كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم } بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى { الذين لا يعلمون } فقال الربيع بن أنس وقتادة { كذلك قال الذين لا يعلمون } قالا : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم وقال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل وقال السدي كذلك { قال الذين لا يعلمون } فهم العرب قالوا ليس محمد على شيء واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه

الأقوال والحمل على الجميع أولى واﷲ أعلم وقوله تعالى : { فاﷲ يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون } أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة وهذه الاية كقوله تعالى في سورة الحج : { إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن اﷲ يفصل بينهم يوم القيامة إن اﷲ على كل شيء شهيد } وكما قال تعالى : { قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم }